مركز الملك عبدالعزيز
الثقافي العالمي

مبادرة من أرامكو السعودية

«بهجة» القراءة

ألبرتو مانغيل

ترجمة: بدر السماري



انطلقت مسابقة أقرأ في نسختها التجريبية عام 2013م، حيث اقتصرت على طلاب وطالبات المنطقة الشرقية، ثم توسعت في نسختها الثانية 2014م، لتكون المسابقة الوطنية للقراءة لتشمل طلاب وطالبات كل مناطق المملكة العربية السعودية.

مسابقة أقرأ الوطنية هي أحد برامج مبادرة أرامكو السعودية لإثراء الشباب، حيث صممت في مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي للاحتفاء بالقراء وعشاق عالم الكتاب ومحبي المعرفة، وخلال الحفل الختامي للمسابقة قدم البروفيسور ألبرتو مانغيل الكاتب والمؤرخ والأديب والقارئ الكبير محاضرته الموسومة ببهجة القراءة، ويسر مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي أن يشارك القراء الكرام المحاضرة مترجمة على يد الراوي السعودي المعروف بدر السماري.

ألبرتو مانغيل

ولد في 1948 في بوينس آيرس، وفي العام 1982 انتقل إلى كندا وحاز على جنسيتها. ألّف العديد من الكتب مثل "تاريخ القراءة"(1996)، و"المكتبة في الليل"(2007)، كما كتب النقد السينمائي في "عروس فرانكنشتاين" (1997) و"أمهات وبنات" و"آباء وأبناء" و"كتاب بنغوين لقصص الصيف"، ومجموعة كبيرة من المقالات والأبحاث والدراسات التي تعتبر مراجع في عالم القراءة والكتابة والنقد.

من بين أهم كتبه الأخيرة روايته "مع بورخيس" (2004م)، التي استلهمها من تجربته مع الكاتب الشهير خورخي لويس بورخيس بعد أن فقد بصره، إذ صار ألبرتو قارئا مساعدا له. فكانت هذه التجربة غنية بكل وجوهها، أولا في القراءة على مسمع أديب رفيع المستوى، والتعلّم من ملاحظاته ونقده المباشرين، ثم تجربة القراءة نفسها التي جعلته يسمع ما يقرأه بصوت مرتفع.

بهجة القراءة

حين نكتفي بإضافة صفة «المتعة» إلى القراءة فلا شكّ أننا نبخسها حقها. القراءة بالنسبة لي مصدر كل المُتَع، فهي التي تُلون كل التجارب، وتجعل الحياة تُطاق والأشياء مقنعة. في اللغة الإنجليزية، تشترك لفظة القراءة «TO READ» في المعنى مع الفعل يُبرر «TO REASON»، وهكذا فأنني أعقد مقارنةً في عقلي مع شيء سبق أن قرأته كلما صادفني حدثٌ ما. وأنا وإن كنت لا أزعم أن بإمكاني بعد هذه المقارنة البسيطة إيجاد مثال حقيقي مما قرأته من حياتي لكل حادثٍ يمر بي، لكنني كثيراً ما أحمّل نفسي الخطأ على تقصيري في القراءة، وربما أرجح أنني قرأت ذلك ذات يوم ونسيته. ربما يجد قارئٌ حكيمٌ في كل صفحة من كل كتاب جواباً أو شرحاً لسؤال ما، وليس بالضرورة أن يعكس ما يقرأه سراً من أسرار الكون دوماً. أنا شخصياً، أقرأ في أشياء محدودة، وهي من الكتب التي تعطي تلميحات فقط مثل: أليس في بلاد العجائب، قصص بورخيس، رواية الدون كيشوت، وأشعار محمود درويش. ولا أستطيع تخيل مشقة الحياة، أو إمكانية العيش الهانيء من دون هذه الكتب.



«أمام هذا الكم الهائل من الكتب المنشورة ومكتبات الإنترنت، فإن القرّاء الحقيقيون أقل طموحاً مما يتاح، ويحتاجون مساحة أصغر للبحث عن الكلمات التي ستصنع الفارق في معرفتهم»

لطالما وجدتُ القراءة مفيدة، لأنها تستطيع أن تتنبأ بمن يمكن أن يكونوا أصدقاءنا، أو لا يكونوا! فعلى سبيل المثال، أعرف جيداً أن القارئ الذي يعترف لي بأنه جنَّ حباً في مونتين سيكون صديقي، وكذلك الذي لن يأخذ معه إلى صحراء نائية أو إلى فراش الموت سوى أدبيات مونتين، وعلى النقيض من ذلك فإنني لن أذهب إلى المقهى بصحبة شخص يرى أن رواية ستيفنسن «د. جيكل والسيد هايد» مخيبة للآمال.بإمكاننا التعرف إلى شخص ما بمجرد الاطلاع على قائمة قراءاته ومفضلات كتبه فقط، وماذا يحب منها، فكل مكتبة هي بمثابة سيرة ذاتية لصاحبها.

بالطبع، لا يمكن لأي شخص أن يقرأ كل شيء، حتى لو رغب في ذلك، وعلى الرغم من الوقت المتاح والمغري بالمضي في قراءة كل شيء، إلا أن الاختيارات الفردية لكل شخص تظل تتميز بخصوصيتها وغرابتها. في المكتبة الكونية الكبرى، ثمة كتاب واحد على الأقل لكل شخص، ولكن ليست كل الكتب صالحة للكل، أنا مثلاً أجد نفسي أفضل فلوبير على ستاندال، الأخوان جريم على أندرسن، وأفلاطون على أرسطو. في قرون مضت، كان بإمكان الباحث معرفة كل كتاب يصدر في يومه، ولكن مثل هذه المعرفة الآن هي خارج الحقيقة والواقع مع هذا الكم الهائل من الكتب المنشورة للاستهلاك. ثمة مكتبات على شبكة الإنترنت تقدم ملايين العناوين، والمتاجر الكبرى التي تغطي مساحة مهولة من المجمع التجاري تعرض عناوينَ لا تحصى، وهي بلاشك مفيدة لقارئ واحد يبحث عن كتاب محدد سلفاً، ولكن للقارئ الحر الذي يتمهل في طرح رأيه حول كتاب قبل وصوله للصفحة الأخيرة، فإن هذه الأماكن لا تناسبه، فهي مجرد مخازن كبرى، لا تعبر عن روح القارئ المغامر في داخله. القرّاء الحقيقيون أقل طموحاً ممَّا يتاح، ويحتاجون مساحة أصغر للبحث عن الكلمات التي ستصنع الفارق في معرفتهم.

في منتصف الخمسينات، أصيب الكاتب الأرجنتيني المعروف خورخي لويس بورخيس بالعمى، انتقل له المرض من والده، وعرضت عليه الحكومة الأرجنتينية بأن يكون الأمين العام للمكتبة الوطنية، حصل ذلك واقعاً و بمصادفة محضة لا نقبلها حتى من كاتب سرد رديء أو حتى متوسط الموهبة، لكنه حدث! وأصبح بورخيس ثالث أمين أعمى للمكتبة.. آنذاك، كتب بورخيس مرثية عظيمة لتأريخ المناسبة وأسماها: «قصيدة الهدايا».. كان يطلب أن لا يعترض أحد على هذه الأعطية من الرب الذي أعطاه في ذات اللحظة «الكتب والظلام الأبدي».. «تُعطى لي معاً» يقول بورخيس، وهو الذي لطالما تخيل أن الجنة تحت ظلال المكتبة.

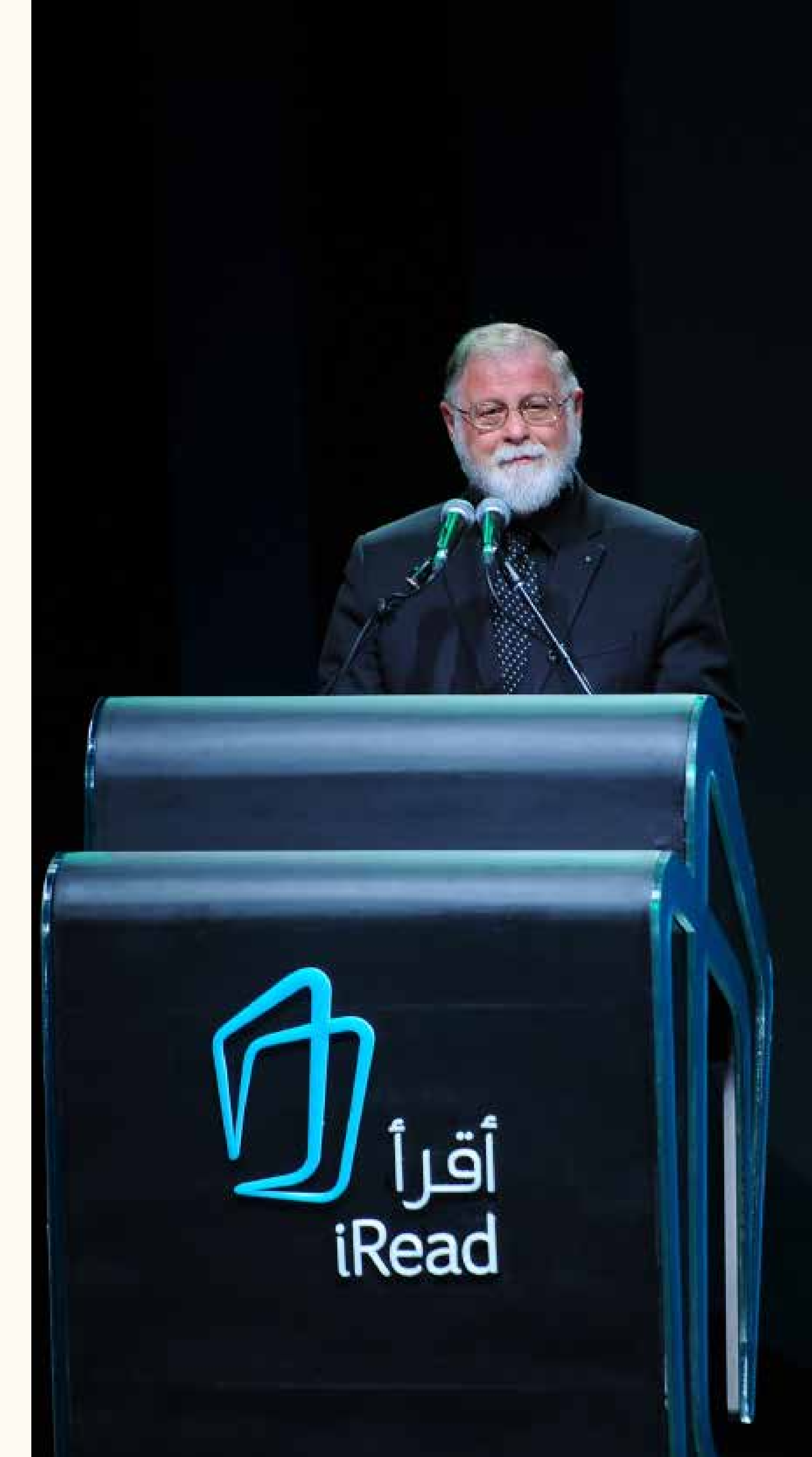


لـو أن الجنــة مكتبــة! يحدونــي أمل كبيـر في ذلـك، ولو أنها كذلـك فإنها ســتكون لكل شــخص حســب حماســته فــي القــراءة. كل التفاصيل تهم فــي هــذه المكتبة الكونيــة الكبــرى، إنها دليــل ملموس على كــرم الرب، و كمــا قــال بورخيــس فــي وصــف المكتبة، إنهــا الجنــة الأبديــة. بما أنه لا يمكــن لقارئيــن أن يقلبــا صفحــات نفــس الكتــاب فــي لحظــة واحدة فــي ذات المكتبــة، فــلا شــك أن كل مكتبــة تحمل فــي طياتها عــدداً غير محــدود من المكتبات، لتســمح لكل قارئ بحمل ما يناســبه من رفوفها، و تــرك مــا لا يناســبه. يقول مــارك توين، «الخيــار الجيد للبــدء في مكتبة مــا هو فــي ترك أعمــال جاين أوســتن».

المكتبة، قبل أن يحســم القارئ اختياراته، تشــبه حســاءً مصنوعاً من ذرة تــم حصدهــا من كل مزرعــة على وجه الكــرة الأرضية. كل شــيء في هذا الحســاء؛ كل فكــرة، و كل اســتعاره، و كل قصــة.. و حتــى هويــة القــارئ. الخيــارات التــي أتركهــا فــي مكتبتــي، و الكتــب التــي أنتقيهــا لا تشــكل فقــط رؤيتــي للجنــة كمــا يقــول بورخيس بــل إنها تشــكل أيضــاً هويتي الشــخصية. باختصار و بــكل صراحة، لطالما شــعرت أن تجاربي اليومية، و كذلــك فهمي لهــذه التجارب هــو حصيلــة قراءاتي.

حيــن كنــت طفــلاً، تعلمــت الحب مــن خــلال قراءتــي لكتب «ألــف ليلة وليلــة»، وعرفت الموت من خلال الكتب البوليســية، وستيفنســن، و رأيت الغابــة من خــلال كيبلنغ، وخضــت المغامرات الإســتثنائية عبــر ما كتبه جــول فيرن. التجــارب الحقيقية والملموســة أتت في مراحــل لاحقة من حياتــي، بيــد أنهــا حين جــاءت، كان لــدي كلمات غيــر محــدودة لوصفها، لطالمــا بــدت القراءة مثل رســم الخرائــط العلمية.

لــدي ثقــة مطلقة فــي قدرة القــراءة على رســم خارطة عالمــي الخاص، و أنــا أعلــم كذلــك أن في إحدى الصفحــات في رف ما يحدق فيَّ تســاؤل: «أنــت تكافــح منــذ زمــن لوضــع الكلمات لشــخص آخــر لا يعــرف كيفية وجــودك»... إنه القارئ الآخــر. العلاقة بين القارئ والكتاب من شــأنها أن تزيل حواجز المكان والزمان والســماح. فرانشيســكو دي كيفيدو كتب في القرن الســادس عشــر كتــاب «المحادثات مــع الموتى». هــذه المحادثات علمتنــي وأعادت تشــكيل ذهني وتفكيــري الخاص.
منــذ أكثــر من نصــف قرن، وفــي واحدة مــن العديــد من مكتبــات الكتب المســتعملة فــي جــادة دي لا فرونتيــرا كالي فــي بوينس آيــرس، حصلت على الترجمة الإســبانية من هذه الكلاســيكية الصوفية؛ «كتاب الطيور». كنــت تقريبــاً بعد ظهر كل يــوم من خروجي من المدرســة أتوقف عند أحد هــذه المكتبــات، أفتش فــي الرفــوف المتربــة والمليئة بالغبار، ولحســن الحــظ، كنــت أجــد كنــزاً كل مرة. فــي ذلك اليــوم، كنت محظوظاً بشــكل



خـاص، لأننـي وجـدت قصائـد الفارسـي الصوفـي فريـد الدين مسـعود العطّـار، و التـي بقيـت معـي طيلـة حياتـي. لا نعـرف شـيئاً تقريبـاً عـن المؤلـف سـوى هـذه التحفـة، و أنـه كان عطّاراً، وسـافر إلـى العديد من الأماكـن، وتوفـي فـي 1230م بعدما تجاوز التسـعين مـن عمره.

أمـا كتـاب الطيـور، فهـو يحكـي قصـة رحلـة خياليـة، إذ تعبـت الطيور مـن الفوضـى حولهـا وانطلقـت تحلـق سـوياً فـي سـرب بهيـج للبحث عـن الملـك القـوي الأسـطوري «سـميرغ»، هـذا الملـك الـذي امتلـك خصائص سـحرية عن ريـش الطيور، كان يقطن في وسـط الأمبراطورية الصينيـة. مـن أجـل الوصـول إلى جبـل «سـميرغ»، عبرت الطيور سـبعة أوديـة سـحيقة، تحمل أسـماء مروعة و مخيفـة ورهيبة، مثـل الإرتباك، والتقهقـر، والهاويـة، والإرهـاق، كانـت كل أنـواع العقبـات تكمـن فـي طريقهـم، ومـن يتخلـى عن السـعي في هـذا الطريـق فقد يهلـك، وفي النهايـة اسـتطاع ثلاثـون طيـراً فقـط من ذلـك السـرب الكبيـر الوصول إلـى جبل سـميرغ، وحين وصلـوا للقمة حيـث يعيش الملك «سـميرغ»، اكتشـفت الطيـور أنـه لا وجـود لسـميرغ، أو بالأحـرى، كانوا هم سـميرغ الـذي عبـر كل هـذه المخاطـر ليصل إلـى هدفه.
أحـد مقاصـد قصيـدة العطّـار هـو أن كل شـيء يهم مـا دام في سـبيل تحقيـق مسـعانا، وأن هـذا الكـون المتعدد الثقافـات هو الدافـع الأكبر للإنسـان لتحقيق هـدف أعلى من الذين سـبقوه، وكذا نحـن جميعاً في مسـعانا الـدؤوب واليومي لتحقيق الأهـداف، وهكذا القـارئ أيضاً حين ينافس ذاتـه في نهـم القراءة.

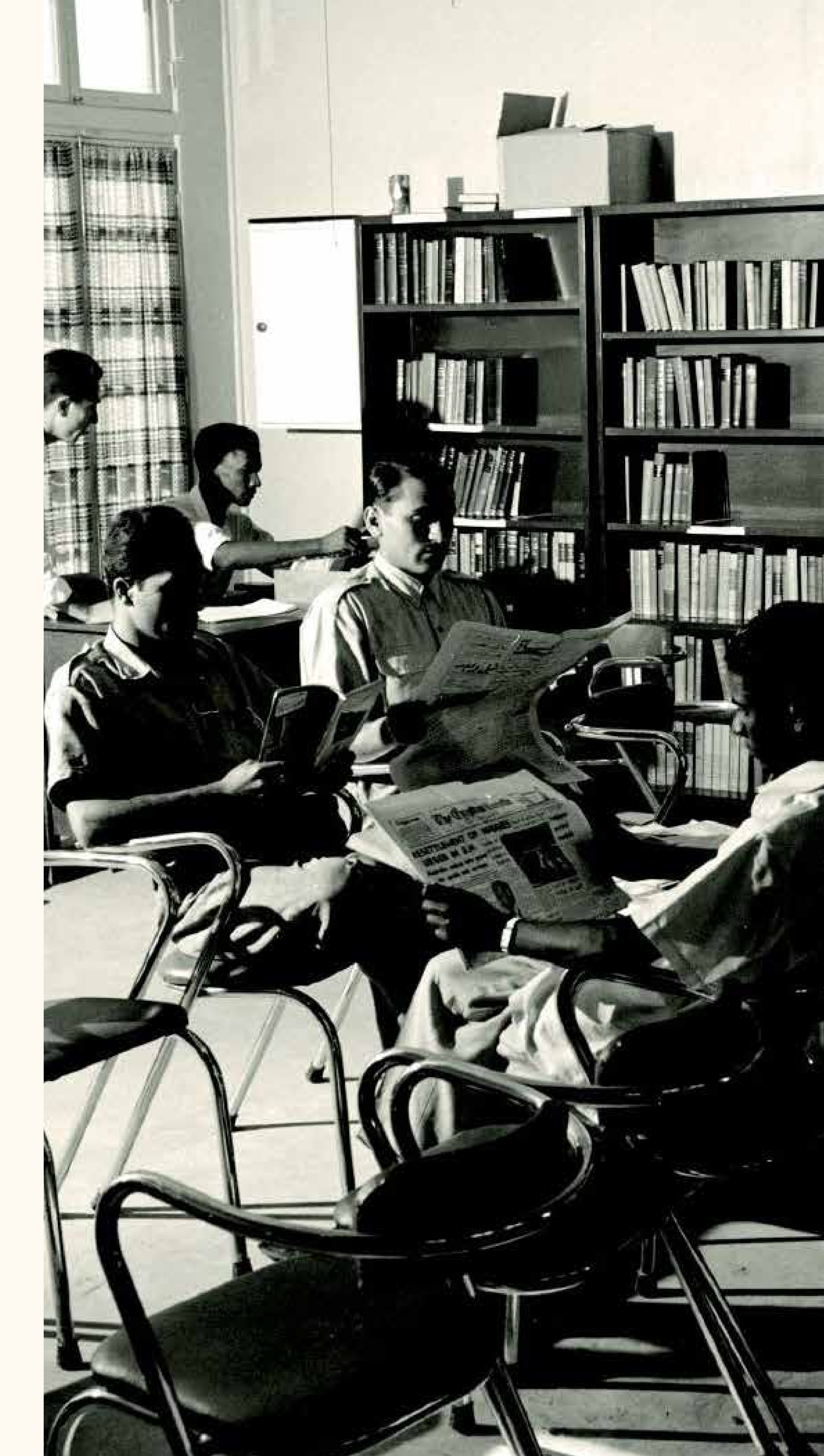
كقـارئ، صنعـت القـراءة مـن ألبرتـو مانغيل أكثر مـن مجرد رجـل واحد، إنهـا الكتـب التـي قرأتهـا وأحببتهـا وأضافـت إلى تجاربـي. إنهـا الأحرف تكمـن خلـف أسـماء مختلفـة مـن الإصـدارات التـي لا نهايـة لهـا مـع نفسـي. أنـا «بينوكيـو»، الرجـل الجبـان الـذي يخشـى مواجهـة المكائـد لكنـه شـجاع بمـا يكفـي لمحاولـة إنقـاذ المحاصريـن داخل الحـوت. أنا «السـندباد» الذي يـرى العالم وراء الأفـق، ويجد أن الحيـاة لابد أن تكون مليئـة بالمخاطـر الهائلة والإثـارة، لكنه فـي النهاية يريد جمهـوراً وقرّاء ليـروي لهـم مغامراتـه. أنـا «ليـر» الـذي يعتقـد أنه يسـتحق يُعتنـى به، و«غونيـرل» الـذي يدرك أن مائة من المشـاغبين السـكارى هـم أكثر مما يحتمـل منـزل واحـد، وأنـا أيضـاً «كورديليـا» التي تؤمـن خطأ أنـه يكفي الإنسـان أن يحـبّ ويظـل صامتـاً، أنـا الوظيفة التـي لا تحتمـل تجاهل السـلطة وترغـب فـي مسـائلتها لأنهـا لا تملـك صبـر أيـوب كمـا يقول المثل، وأنا «شـهرزاد» التي تعـرف أن بإمكان القصص إنقـاذ حياتك، وأنا «سـميرغ» الـذي هـو كل الطيـور التي صارت سـميرغ.



أحد ألمع الشخصيات التي تمثلني في حياتي هي شخصية؛ «أليس». لدي في المنزل بضعة رفوف في مكتبتي عن أليس وحول شخصيتها، ثمة إصدارات مختلفة وعبر لغات مختلفة، مقالات وقراءات من كل نوع، وكذلك العديد من السير الذاتية للويس كارول، وكذلك نسختي المفضلة من مارتن جاردنر وشروحاته التي يوجه القارئ فيها نحو شخصية أليس، عبر مجازه واستعاراته، والأحجيات التي يقدمها، وتأملاته الفلسفية العميقة، والطُرَف المضحكة. لقد عاشت معي أليس طيلة حياتي ومن خلالها شاهدت العديد من البشر في بلاد العجائب مراراً وتكراراً.

كانت المرة الأولى التي قرأت فيها عن أليس، أثناء مراهقتي، وأدركت حالاً أن لدي روح شقيقة هي روح أليس. خسرت بالطبع عالم البالغين الذين يعيشون بجنون مع قوانينهم التي تكسر كل قانون، ورغباتهم غير المقبولة كأن يطلبوا من أليس:«إنحني بينما تفكرين بماذا ستقولين. فذلك يوفر الوقت». بيد أني كنت أطرح الأسئلة، مثل ما هو المرادف الفرنسي لكلمة ما؟. أما في بدايات العشرين، فتعرفت على أليس أخرى، أليس الفيلسوفة صاحبة الذهن المتقد للإبداع الذي تجرد من القيود والضعف في اللغة، كان ذلك عندما بدأت بالكتابة. تعرفون بالطبع ذلك القول المأثور عن الكتابة؛ «تعرّف على نقاط قوتك، هذا كل شيء»، وصرت أردد ذلك بصوت عالٍ ومغرور في داخلي. في وقت لاحق، أدركت أن قصة أليس تشرح بدقة عصرنا الحاضر وهو أن الرأسماليين والممولين مسؤولين عن الأزمة الاقتصادية اليوم. ذلك يشبه أن يكون لديك متسع فوق طاولة الشاي، ومع ذلك تقول «ثمة مكان لتقديم مربى الفراولة بالأمس وغداً، أما اليوم، فلا مكان يسمح». السياسيون في كل مكان يرددون مقولة للدوك حين يقول: «لدينا الكثير من الحق في التفكير» بالطبع كما لدى الخنازير حق في الطيران». تخيلوا معي أن كريستين لاغارد رئيس صندوق النقد الدولي قالت للفرنسيين في خضم أزمة البطالة؛ «إلى العمل أكثر والتفكير أقل».. ياله من تفكير أبوي أحمق يود خلق المزيد من المستهلكين الحمقى، ويطلب من السلاحف أن تنضم إلى حلبة الرقص التي يرقص فيها الجميع كما يرى هو!!...

يقال إن حكماء الفراعنة ورجال الدين كانوا من أوائل باعة الكتب في العالم، إذ كانت الكتب تقدم في المعابد من خلال نسخ كتاب المتوفى لأسرته، وكان الكتاب يوضع مع الجسم في القبر لتوجيه الروح في مملكة الظلام. إن هذه الوظيفة المقدسة على قدرٍ كبير من الوفاء، وهي لا تزال متداولة حتى هذا اليوم من قبل أي قارئ

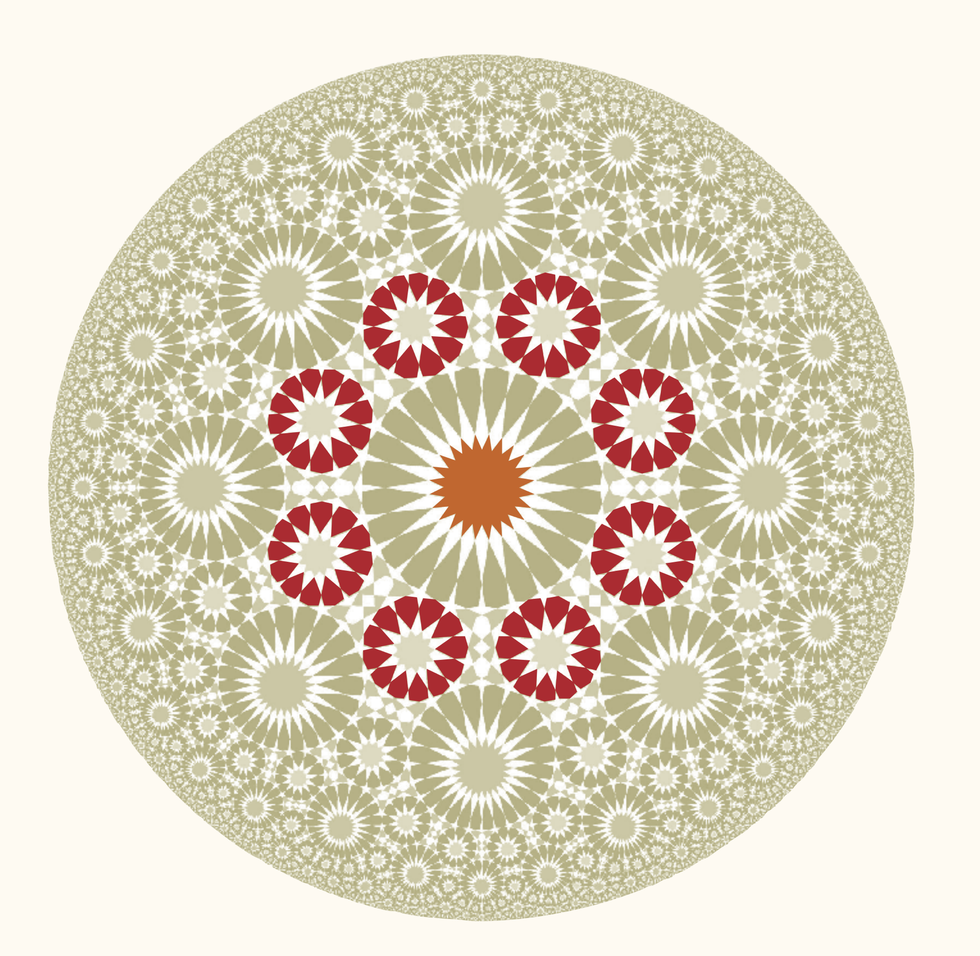


يرغـب في أن يشـارك كتبـه مع الآخريـن. يشـارك الكتب التي تـدل روحه عبـر الحيـاة، ويوصـي الأصدقاء بالكتـب. فبالكتب نتقاسـم حلـو الحياة، ومـن ثـم تصبـح لأولئـك الذيـن يحسـنون معرفـة اسـتخدامها بمثابـة الوصفـة السـحرية لمباهـج الحيـاة، تكون هـذه الكتب دليـلاً نفهم فيه هـذه الرحلـة الدنيويـة، وإن رغبنـا، سـتكون دليـلاً لرحلتنـا القادمة بعد هـذه الحياة.

القـارئ يعـرف أن الكتـاب الصحيـح في اليـد الصحيحـة يعمل مثل الوصفـة السـحرية التي تسـاعدنا علـى تجـاوز كل الصعاب.

يقـال أحيانـا أن الكائن القـارئ مخلوق ينقرض، وأنا لا أصـدق ذلك، إنني مقتنـع تماماً بأن البشـر يمكن تعريفهم بأنهم كائنـات تقرأ فقط. وطالما نحـن قـادرون علـى العيش في هـذه الحياة وعلـى هذا الكوكـب، فنحن سـنقرأ، ونكتـب لنقـرأ. نحـن نولد ومعنـا دافـع لفك ألغـاز هـذا العالم، ننظـر إلى كل شـيء حولنـا كما لـو كان قصة نحـن من نخـطّ مكوناتها، مـن مثل هـذا الدافع تنبع الاسـتعارة القديمة بـأن العالم مثـل الكتاب، كتـاب نقـرأه وهـو الكتـاب الـذي تخطـه أيدينـا. مـن هـذه الاسـتعارة المجازيـة يأتـي معنـى القـراءة كفعل سـحري، يسـمح لنـا بالتغلب على الحواجـز، نشـاط غير قابل للكسـر على مـرّ الزمـان والمكان.

منـذ مـا يقـارب الأربعة آلاف سـنة، فـي جبال زاغـروس من بـلاد ما بين النهريـن، كتب قارئ لصديقه قائـلاً: «لقد جلب لي بلاتال رسـالتك وفيها أخبـارك الخاصة، وكم أسـعدني ذلك، لقد شـعرت بأننـا التقينا من خلال الرسـالة، وتبادلنا الأحضـان بعد قرائتها».
رسـائل، قصائـد، قصص تتحـدث لنا عن شـخصيات سـحرية وأماكن لم نرهـا، تخرجهـا مـن الظـل إلـى مخيلتنا، مـن خلال قانـون إعجـازي، ألا وهـو القراءة.
إن عـادة القـراءة، أن تحمـل كتاباً بيـن يديك حيـن تكون مسـترخياً فوق كرسـي في منزلك، أو أن تكون راكباً حافلـة أو طائرة أو قطار، في الحمام، أو مسـتلقياً على بطنك فوق العشـب في حديقة، أو ربما مسـتلقياً على ظهـرك في سـريرك الخـاص، تقلـب الصفحات للـوراء أو الأمـام، تبحث فـي الكتـاب عـن جملـة مفضلـة، أو وصـف لشـئ ما، بشـكل سـريع أو بطـيء كمـا تـراه مناسـباً. إن هـذا الشـئ يسـمح للآخريـن بالعيـش في قراءتنـا، ويسـمح لنا بالعيـش في حديـث الآخرين. هذا الخلـود والبهجة لا يتحققان سـوى بفعل واحـد وهو القراءة، كما هو الحال مع أي شـيء آخر علـى هـذه الأرض، لا يتحقق سـوى بفعل.



لكـن هـذا النعيـم لا يتحقق سـوى بتحقيق بعض الشـروط البسـيطة، والمهـام الأساسـية لـكل قارئ، وأظن أني أسـتطيع سـرد سـتة شـروط منهـا كالتالي:

إنقاذ ذاكرة الأدب من الانقراض

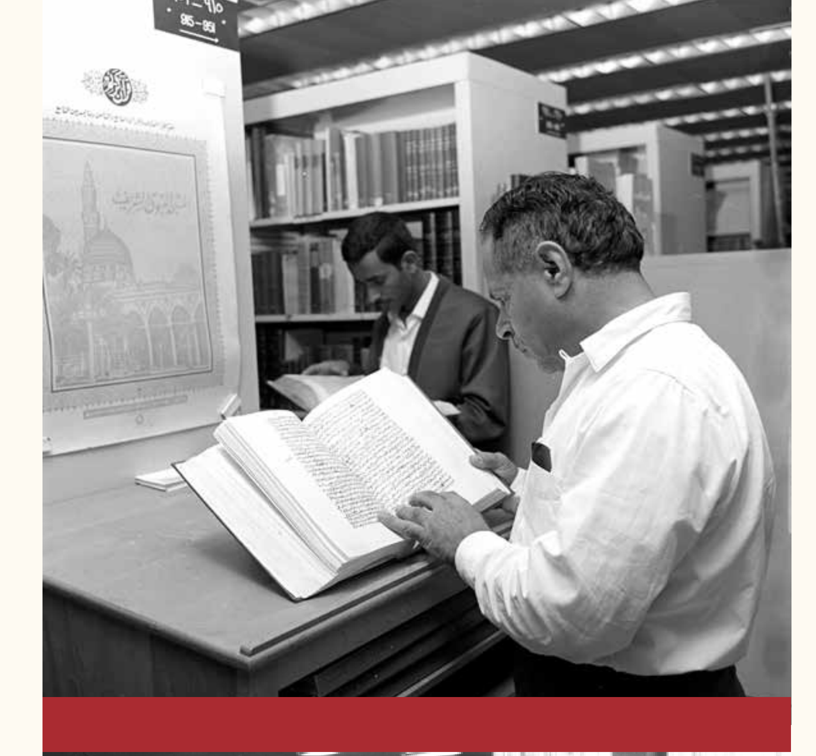
لطالمـا وجـدت تاريـخ الآداب عبـر الإنسـانية في قمـة الروعة، إنـه يؤرخ زمـن التطـور وزمـن الانحطاط، إختـلاف المـدارس الأدبية ونمو شـكل مـا وإنقـراض آخر، الإتجاهـات الجديدة، والحركات الناشـئة. إنه بلا شـك تعبيـر أبـدي عـن حركة هـذا الوجود ونمـوّه. وعبـر هذه الرحلة، سـيظل القـارئ هو من يحدد أي الكتب سـتعيش وأيها سـوف يُنسـى. ما الكتاب الـذي نقـرأه للمتعـة ومـا الكتب التـي نطّلـع عليها مـن أجـل المعرفة والتعليم.

القـرّاء هم من يضعون التسـمية التـي تخصّهم بالكتب حسـب ميولهم وأهوائهـم، القارئ هـو المنقذ الوحيد للكتاب واختيار مسـاره الخاص، لا أحد بخلاف القـارئ يمكنه تقريـر مصير الكتاب.

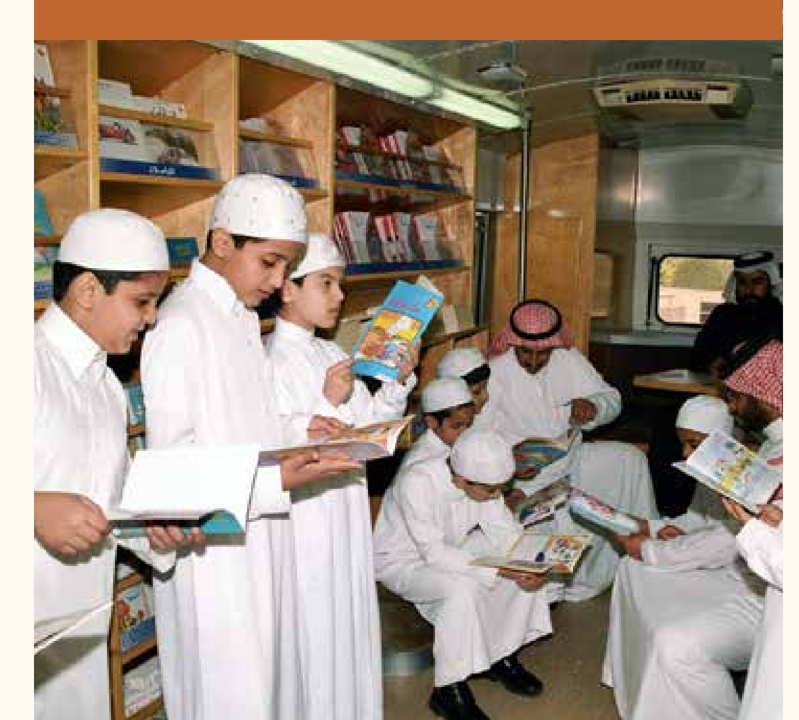
القـارئ هـو مـن يحـدد هـذه المكتبـة الكونيـة للكتـب وليـس الكاتب، القـارئ هـو الحكم من هـذه الناحية بخـلاف رغبة الكتـاب. ربما تعرفون كتـاب «رحـلات جاليفـر» وأنه كتـاب للأطفـال، وليـس هجاء للسياسـة الشرسـة كمـا كان المؤلـف يرغـب فـي ذلـك. القـرّاء هـم مـن جعلـوا شكسـبير يتحول من خشـبة المسـرح إلـى صفحـات الكتب، علـى الرغم مـن أنه لم يكـن يعتقد بفائـدة طباعة هاملـت أو ماكبث. كمـا أن القرّاء هم من قرروا بلا رحمة أن ينسـوا آلاف الكلاسـيكيات التي نصبت نفسها بنفسـها كأمهـات للكتب وحوّلوها إلـى المعارك مع العـثّ في المخازن.

يجب أن نعلم وندرك أن الأدب صامت بلا قرّاء.

نشـر راي برادبـري «فهرنهايـت 451» للمـرة الأولـى في عـام 1954. آنذاك، كانـت وظيفـة رجـل الأطفـاء ليسـت إخمـاد النـار، بل إشـعال النـار في الكتـب حتـى تحترق. بيـد أن بعض النـاس وهم عـدد قليل بالمناسـبة، كانـوا يعتقـدون أن الكتـب ضروريـة، وأن مهمـة إنقاذ الكتـب وحفظها علـى قدر عـالٍ من الأهميـة. ظهر مونتاج وهـو أحد الأبطـال الذين كان لهـم هذا الإيمـان وإنضـم إلى بقيـة الكتب فـي الخفاء، وحفظهـا. قيل لـه: «هل ترغب أن تقـرأ جمهورية أفلاطون في يوم مـن الأيام؟». فأجاب: «بالطبـع». هـل ترغب في قـراءة ماركـوس أوريليـوس، بالطبـع.. وهكذا تجمّـع مونتاج، وداروين وشـوبنهاور وكونفوشـيوس، والمهاتما غاندي. ذلـك أنـه فـي يوم مـن الأيـام، يمكـن كتابـة الكتب مـرة أخرى، وسـوف







يسـتدعي الناس الأسـماء واحداً تلو الآخـر، ليقرأوا ما يعرفونـه، ويعيدوا بعـث هـذه الكتب التـي حفظوها. هذا مـا فعله مونتاج. فعـلٌ على قدر عـال مـن الأهميـة، لم يشـعر بالتثبيـط أو الاشـمئزاز، لأنه يعلـم أهمية هـذا العمل.

إذن المهمة الأولى للقارئ هي إنقاذ ذاكرة الأدب من الإنقراض.
أما المهمة الثانية فهي الشعور الحقيقي بهذه الذاكرة.
الكُتـاب الذيـن تحملهـم رفـوف مكتباتنـا بما خطـوه من كتـب وأدبيات يبـدون للوهلة الأولـى متنوعين وغرباء، إنهـم يجلبون لنـا ذكرياتٍ غريبة ويلونونهـا بالألـوان، بالطبـع هـم يفعلـون ذلـك بأسـاليبهم الخاصـة وطرقهـم وخيالاتهـم المختلفـة، لكن اللغة التي يسـردون بهـا أدبياتهم تؤثـر بالطبـع، ويتفاوت تأثيرها من قـارئ لآخر، فما يتـم تصويره في لغة يختلـف عما يتـم في لغـة أخرى.

فـي الواقـع إن اللغـة الواحدة ليسـت متعادلة أيضـاً، حيـث أن التقاليد السياسـية وحسـابات القـوة والضعـف لهـا يد في بنـاء النصـوص، إنها تمثـل أهميـة كبـرى بقـدر الموسـيقى الشـاعرية والمنطق فـي القصّ. بالتالـي، لا أجـد جدوى من محاولـة الحد من الخيـال، أو منع الكاتب من استكشـاف مناطـق جديـدة، لأنـه لا شـيء فـي العالم ينتمي لشـخص واحـد أو مجموعـة واحـدة. الحقيقة في النـص تكمن في قـراءة النص، ولا تكمـن أو تختبـئ خلف نوايا الكاتب، إذ لا يمكن أن نصف أشـعار بابلو نيـرودا بأنها ضد الإنسـانية، بـل إن ما كتبه كان مع الإنسـانية حين حارب الديكتاتوريـة، كذلـك روايـات المبدعـة لويـز فردينانـد سـيلين، لا يمكننا وصفهـا بـ«الفاشـية» بل هي ضد الفاشـية.
فـي عـام 1960، كتـب يوجين يونيسـكو مسـرحية محاولا أن يستكشـف (وفقـاً لتعليقـه) تجربتـه مـع النازيـة: «وحيـد القـرن». حيـث وصـف مجتمعـاً يتحـول ببـطء إلـى حيوان وحيـد القـرن. ظل رجـل واحد فقط فـي المسـرحية وهو بيرينجـر يرفض التغييـر، وانطلقت كلماتـه الأخيرة فـي المسـرحية حين صاح فـي جحافل البشـر الذين يتحوّلـون إلى وحيد القـرن قائـلاً: «أنـا لن أستسـلم». في عـام 1962 وقبل قليل من اسـتقلال الجزائـر، وفـي خضـم حـرب الجزائـر ضـد الاسـتعمار الفرنسـي، أقيمـت مسـرحية «وحيـد القرن» فـي الجزائـر، وحين وصلـت النهايـة وإنطلقت كلمـات بيرينجـر بوضوح في المسـرح قائلاً: «أنـا لن أستسـلم». إنطلقت الهتافـات مـن كلا الجانبيـن بعلـو صاخـب، إذ أن الجزائرييـن وجدوا في كلمـات بيرينجـر مـا يحثّهـم علـى الحفاظ علـى القتـال، والفرنسـيين ما يحثّهـم علـى عـدم الاستسـلام. كلا الجانبيـن هتفـا للمثل، إنه الشـعور بالذاكـرة مـن أدبيـات يونيسـكو، كل جانـب قـرأ هـذه القطعـة الأدبيـة حسـب مشـاعره، وأنا أعتقـد أن كل قـراءة كانت مشـروعة.

مـن الممكـن بطبيعة الحـال أن يمضي الأدب بـكل نصوصه نحو العبثيـة ومهمـة القـارئ الثالثـة هي فـي عدم السـماح لذلك بأن يحدث.

كل الكتّـاب بلا اسـتثناء لديهم ميزة واحدة يشـتركون فيها؛ وهي قدرتهم علـى خلـق وتوليد صـور بصرية للمناظـر الطبيعية من خـلال الكلمات، وعلـى القارئ أن يميزها ويتعـرف عليها. هذه المناظـر تختلف من كاتب لآخر، إذ أنها كما قلت مسـبقاً صيغت بواسـطة أشـكال ولغات مختلفة وأنمـاط تفكيـر مغايرة، لكنهـا كلها مناظـر طبيعية وعلى القـرّاء تخيلها وإعـادة اختراعهـا واستكشـافها مـن جديـد علـى مسـؤوليتهم الخاصة. إعـادة الاختراع والاستكشـاف هي مهمة القـارئ الثالثة.

لقـرون مضت ولقـرون قادمة، قـرّر القارئ الـذي يتموضع في السـلطة الرقابيـة للكتـب، أن بعـض النصـوص فقـط هـي مـا يجـوز قراءتهـا واستكشـافها، وأنها تسـتحق الاستكشـاف والتدبـر. هذا القـارئ الرقابي قـام بوضـع كلاسـيكيات ودسـتور لمـا يجـوز ومـا لا يجـوز مطالعتـه وذلـك مـن أجل أهـداف محـددة بالطبـع، تخيلـوا أن القليل مـن القرّاء يفرضـون مـا يجب وما لا يجـب، ولكن القـرّاء الآخرين والأكثريـة ما زالت لهـم قوائمهم الخاصة لحسـن الحـظ، والتـي تنبع من أهداف وأسـباب مغايـرة لأهـداف قـارئ السـلطة. كل هـذا لا يفيد فـي رأيي الشـخصي لمتعة القراءة. تشـينوا أتشـيبي صُنِّف مع جوزيف كونـراد كخصمين عبر روايـة «قلـب الظلام»، بوصـف النص يدعـو للعنصرية، وثمـة من يقول عن رواية أتشـيبي إنها لا تفسـح البـاب للغرباء من خارج القـارة الأفريقية لقراءتهـا، والحقيقـة أن القراءة أوسـع مـن كل ذلك، بـل إن البعض قال إن هـؤلاء هم مصـدر الرعب كمـا يرى كورتـز: «وصف للهمجيـة» (وهذا فـي واقع الحال وصـف الإمبرياليـة الأوروبية)، لكن الرعـب والخوف هو مـن العالـم كلـه وليس مـن أفريقيـا، البشـرية وضعـت أوروبـا وإفريقيا علـى حـد سـواء. مـن هـذا المنطلـق، تبـدو لـي –كقـارئ- روايـة «قلب الظـلام» كنص مضـاد للعنصرية وأنـه الرمق الأخير لهـا، ولا يوجد أمل لأي نظـام سياسـي في إعادة بعثهـا، إنها نهايـة العنصرية. وسـواء آمن الروائـي كونـراد بذلـك أو لا، فهـذا لا يهم، هـذه قراءتي كقـارئ. إنه عمل فنـي عظيـم، والفـن العظيـم يتفوق علـى مبدعه الـذي خطّه.

«هنـاك أمـل، ولكـن ليـس بالنسـبة لنـا» هـذا الاقتبـاس لفرانـز كافكا، وهـو يمثـل باختصـار قـراءة رائعة «قلـب الظـلام». من هنـا، يجب على القـارئ دومـاً أن يكتشـف النصـوص ليخـرج بقـراءة مبهـرة لهـا تتفوق علـى مبدعيهـا، هكذا هي النصـوص العظيمة، وعلى القـارئ ألا يتخلى عـن حريته فـي استكشـاف النصوص، وإعـادة قراءتهـا وتخيّلهـا وبعثها



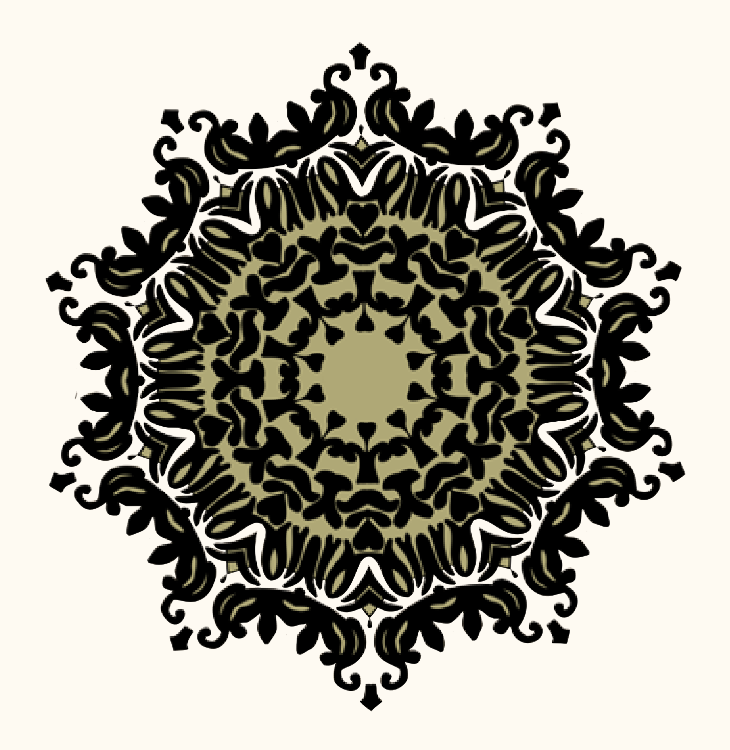
مــن جديد بــروح جديــدة، بل علــى القــارئ أن يطالــب بالمزيد مــن حرية استكشــاف وقــراءة النصــوص والاطــلاع عليها.

المهمــة الرابعــة للقــارئ تعتمد على مــدى رغبته في إضفــاء قيمة علــى النص.

لربمــا نجد بعــض القرّاء منســجمين مــع المناظر المدهشــة والخصبة عنــد غابرييــل غارســيا ماركيــز أو لــدى مارغريت يورســنار، والبعــض الآخر لربما يشــعر بالألفة مع مطبخ أو غرف النــوم والجلوس عند أليس مونرو أو نجيــب محفــوظ. ثمــة آخريــن يلائمهم عالــم الحيوان كما فــي روديارد كيبلنــغ أو حكايــات إيســوب، وهناك من ينجــرف نحو الأدب الكلاســيكي المحافــظ لدى صادق هدايت أو تشــارلز ديكنز، أما القــرّاء المحظوظون فهــم من يســتوطنون كل هــذه العوالم، ويتآلفــون معها، ويــرون أن كل هــؤلاء الكتــاب العظماء بدرجــات متفاوتة، يســحرون الألباب.

هنــاك قصة جميلــة للكاتب العظيــم خورخي لويس بورخيــس عنوانها: «وردة باراســيلوس». باراســيلوس هــذا كان أحــد معلمــي ومشــعوذي القــرن الســادس عشــر، دعــا الله أن يرســل إليــه تلميــذاً، وجــاء التلميــذ وكان حريصــاً علــى التعلّــم من أســتاذه الذي لا يشــق له غبــار، كان على اســتعداد لدفــع كل مــا يلــزم مــن العمــلات الذهبية. كان أشــد مــا يود التلميــذ معرفته من أســتاذه هو أن يتعلم خدعة باراســيلوس في كيفية إتــلاف وردة وإعــادة إحياءها؟.. اعترض باراســيلوس، وقــال للتلميذ أن لا شــيء يمكــن أن يتلف فــي الحقيقــة، فقط مظهر الشــيء هو مــا يتغير، وإن كلمــة واحــدة فقط كافيــة لإعادة الشــيء لمظهره وحياتــه. كما نبّهَ باراســيلوس تلميــذه أن بعــض المعلميــن الآخريــن كانوا يكذّبــون ذلك، «لكــن التلميــذ كان حريصــاً علــى المعرفة، ولهــذا أخــذ وردة ورماها في النــار، فتحوّلــت الــوردة إلــى رمــاد. شــعر التلميــذ بالخجل، لكــن المعلم قبــض علــى العمــلات الذهبيــة، ولو تركهــا لــكان بمثابة من يتــرك ماله فــي الطريــق».. لننظــر معاً كيــف أنهى بورخيــس قصته؛

«صعــد باراســيلوس إلى أعلى الــدرج برفقة التلميذ، وأخبره أنه ســيعلمه على الرحب والســعة كيف يعيــد الحياة للوردة. كانا يــدركان أنه بعد هذه الخطــوة ربمــا لــن يريــا بعضهما مــرة أخــرى. نفــخ باراســيلوس ليطفئ المصبــاح ويجلــس علــى كرســي مهترئ، قــال له إنــه جمع في كــفّ يده حفنــة صغيرة مــن الرماد، وبصوت منخفض قال كلمــة واحدة، وظهرت الوردة».



المهمة الخامسة للقارئ: أن يكون جمهور الساحر.
المهمة الخامسة للقارئ هي الفهم، أن تأخذ النص إلى أعلى مستوى ممكن من الفهم لتجربتك الشخصية، ومحاولة رفع النص لمستوى مهاراتك العامة في الحياة. هذه الكلمات التي أبدعها الكتّاب لترقص أمام أعيننا وتتمايل في صفحات الكتب تخلق عند القارئ أصواتاً تستيقظ في ظلمة العقل، هذه الكلمات في جوهرها سحر للعقل. من هذا الفراغ الذي وضع فيه الكاتب حروفه وخلاصة عقله، يمنح القارئ الرغبة بالاكتشاف والاستكشاف، والتحليل والاستنتاج، والفهم والاستدلال، والحل والعقد، وتقريباً ملء الفراغ حولنا، وربما الوصول إلى فهم هذا العالم.
كتب الشاعر الأمريكي ريتشارد ويلبر قصيدة عن شعراء الأترورية. اللغة الأترورية كما يعلم البعض هي لغة لم يتم فك شفرتها تماماً حتى الآن. لذلك، في حوزتنا دوماً أمثلة عن الأدب والنصوص التي لم نستطع قراءتها وفهمها تماماً كما ينبغي. هذا هو ما يحصل للأدب حين نعجز عن فهمه وفك شفراته؛

«إلى شعراء الأترورية
احلموا بوضوح، إذ ما يزال أخوتكم يتقاتلون على الحليب
الذي شربوه من صدور أمهاتكم
في تلك المتراجحة النقية، ينضم العالم للعقل
ينضم ولا يترك أثراً بعد ذلك
مثل مسار جديد عبر حقل الثلج
لم يحسب حساب أن الثلوج قد تذوب وتمضي»
إنه الفهم أيها القارئ..

مهمة إضافية أيها القارئ، آخر مهمة أتحدث عنها وهي الأهم، إنها المتعة.

اللذة، النعيم الذي نجده حين ننسى أنفسنا في وسط صفحة، ونواصل القراءة بلا إحساس بالوقت. القراءة شأنها شأن أي شيء آخر ما لم نجد فيه بهجة، فإنه جهد لا يستحق التعب. من هنا تكمن مهمة القارئ، بأن يثق في كتابه حين يجد المتعة، وليمضِ معها حيث تكون. المتعة واللذة في القراءة أمر غامض، تبدأ أحياناً عند نقطة محددة، ثم ما نلبث أن نجد أنفسنا فجأة في مسار مختلف تماماً. كثيرون هم من يكتبون سيراً ذاتية ومجيدة وعظيمة، لكنها لا تخلق كلها بالضرورة متعة للقارئ الجيد.

«الكلمات التي أبدعها الكاتب لترقص أمام أعيننا وتتمايل في صفحات الكتب عند القارئ أصواتاً تستيقظ في ظلمة العقل، هذه الكلمات في جوهرها سحر للعقل، وتمنحنا الرغبة في الاستكشاف وفهم العالم»



من الصعب بل من المستحيل أن أشرح لكم كيف أن كتاباً معيناً يمنحنا المتعة، بقدر ما هو صعب أن يشرح أحدكم لماذا يحب شخصاً ما؟.. بإمكانكم الخروج بجملة أسباب، وكذلك العديد من الأمثلة، لكن شيئاً واحداً هو ما يهم حقاً، إن متعة كل كتاب فريدة من نوعها مثل الأحجار المنحوتة التي نراها، كل حجر فريد من نوعه.

ميشيل دي مونتين، الذي تحدثت عنه في بداية هذه الكلمة، كان قد كتب عن صداقته الوثيقة مع صديقه إيتيان دي لابوتي؛ فقال: «حين يسألوني لِمَ أحب هذا الرجل، فإني لا أجد شيئاً مناسباً لأذكره سوى القول بإنني أحبه لأنه كان هو، ولأني كنت أنا». ربما تكون هذه الأسباب كافية، فمكتبتي تمنحني المتعة، لأنها مكتبتي ولأنني أنا. ورغم أنها ليست كبيرة كما يتخّيل البعض، لكنها قطعة من القلب، وأعتقد أن من بينها ربما ثلاثين، أو لنقل خمسين كتاباً أشعر من دونها بأنني خاوٍ جسدياً و روحياً. هناك دوماً بعض الروائح وبعض الأصوات، وبعض المناظر الطبيعية والأشكال والوجوه التي تحددنا وتعيد تشكيلنا وتتواءم مع نفسياتنا، إنها أشياء ترتفع عن كل ما سواها في ذاكرتنا، شبحية المعالم ولكن من المستحيل تجاهلها، إنها الأشياء الحميمة والتي من دونها لربما نتلاشى إلى العدم. سوف تستمر الكتب التي أحببتها دوماً، ولربما تكون على رف قارئ آخر، بل قرّاء آخرين، لكنها لن تكون ذات الكتب التي قرأتها يوماً بعد ظهر صيف قائظ وفي غرفة بعيدة وفي ظل ظروف دعتني لتذكر صفحة معيّنة تجلب كل الذكريات معها. لكل قارئ قراءته الخاصة به.

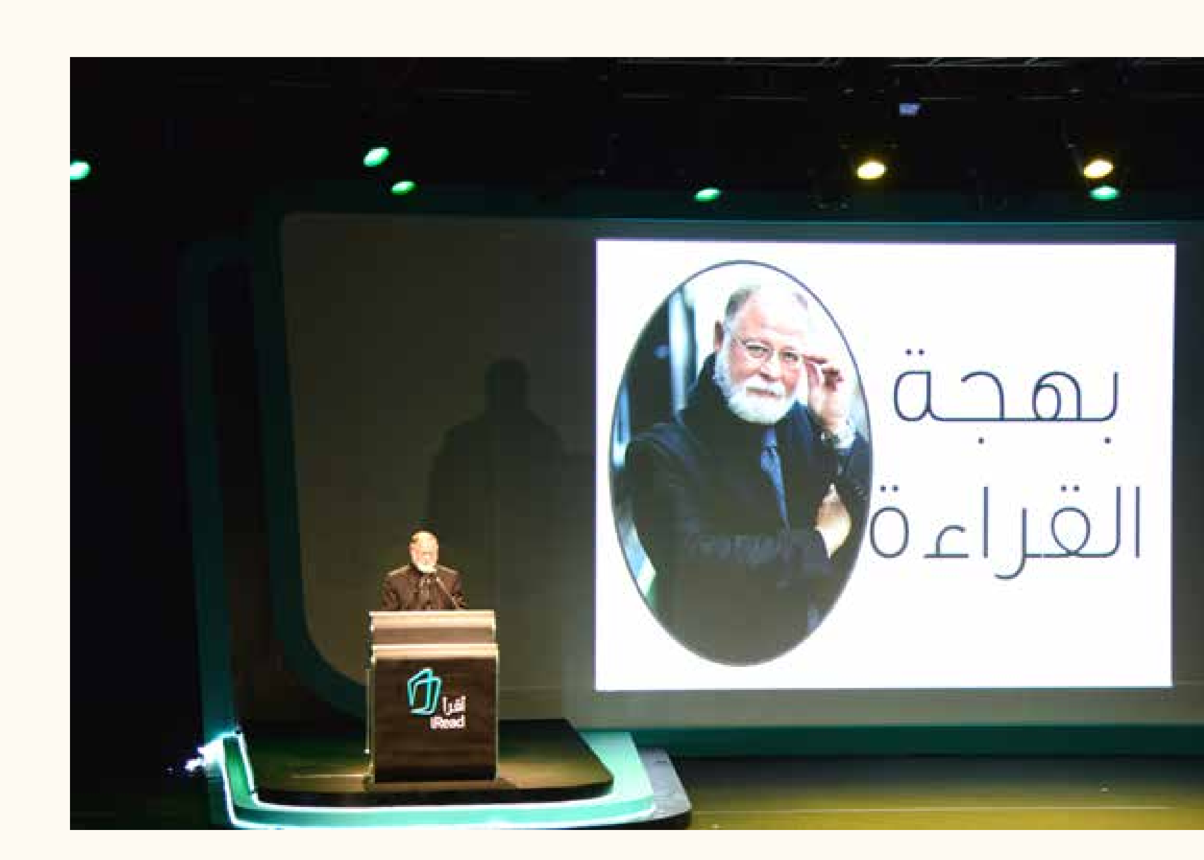
إنه لمن العجب أن أجد أن هذه الكتب المبهجة والتي شكلت مغايرتي للآخرين جالبة للطمأنينة مثل مخلوقات مؤمنة. أجدها في أوقات الاضطراب واليأس والمعاناة الجسدية والذهنية وعدم الاستقرار النفسي. فمع وجود هؤلاء الجشعين الذين يطاردون الخلق، والحمقى المزعجين حول العالم والبيروقراطيين والرقباء وكل الحمقى، لطالما وجدت هذه الكتب تقف إلى جانبي تحت سماء كئيبة ثقيلة، وأظن أن كل شخص على هذه الأرض من حقه الحصول على صحبة تحمل عنه بعض أوزار الوقت وتعينه على الحياة. هذه الكلمات هي معجزة، إذ أن هذه الصحبة المصنوعة من الكلمات قادرة على توجيهنا وتقوية عقولنا وأذهاننا وأبداننا، وتعزيتنا. فمن الكلمات ما يُذهب الحزن.

البعض يعتقد أن ثمة أشياء مفيدة أكثر من القراءة مثل العمل على تحسين الاقتصاد، وكسب الحروب، واكتشاف كواكب جديدة، واستغلال موارد الأرض الطبيعية حتى الموت، واستدامة السلطات والممالك

السياسية. لكن كل هذه الحجج دامغة، ربما تقنعنا للحظات، ولكن على المدى الطويل. وفي نهاية المطاف، في أعماقنا، سنفهم أن القراءة شيء آخر ومختلف عن كل ما سواها.

قبل الختام، لعلكم من خلال القراءة تعرفون بأن دانتي حين مشى طريقه الطويل والشاق ومرّ خلال حفرة من الجحيم التي تظهر فظائع العقاب الإلهي، وبعد أن تحدث مع أرواح تتعذب إلى الأبد، خرج بواسطة المرشد فيرجيل، من المكان الرهيب الذي حوصر فيه لوسيفر إلى الأبد، ليرى ضوء الفجر على الشاطئ حول جبل العذاب. ثمة سفينة يقودها ملاك مليئة بالنفوس التي ترغب في التطهر من خطاياها على طول الأفق المؤلم، حيث تصل بعد ذلك إلى الذروة عند جنة عدن. هناك وعد الخلاص، حيث يجب على النفوس القيام بواجباتها وتسلق الجبل للخلاص.

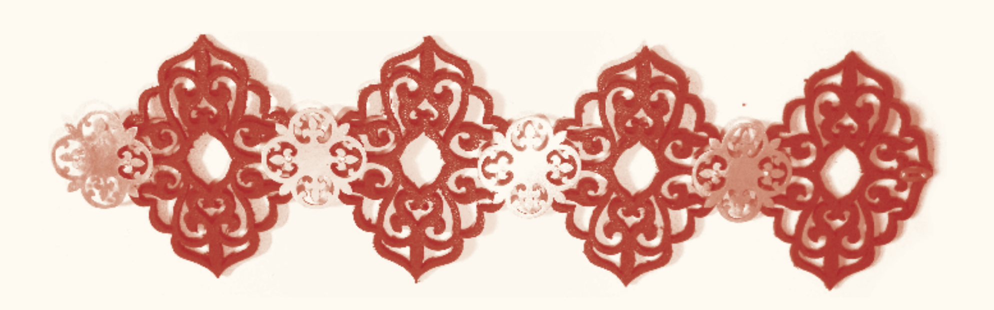
كان دانتي يشاهد السفينة تفرغ حمولتها من الراغبين في التخلص من الخطايا والأدران، كان يعرف بين القادمين الجدد صديق قديم، إنه الموسيقي كاسيلا، والذي كان ذات يوم قد كتب له العديد من الأغاني. حاول دانتي أن يحتضن صديقه كاسيلا ثلاث مرات، وفي كل مرة يفشل، يحاول معانقته وتبادل السلام ويفشل، ثلاث مرات من الفشل لأن كاسيلا كان مجرد انعكاس وظل، ولهذا لم تستطع يدا دانتي التشبث بهذا الظل. وإكراماً للأيام الحلوة وذكرياتهم العبقة في فلورنسا البعيدة الماضية، سأل دانتي رفيقه كاسيلا أن يغني له، ووافق كاسيلا، ورفع صوته باللحن الجميل مغنياً أنشودة دانتي التي كتبها ذات يوم ملئ بالشباب والحياة والجمال. كان غناء كاسيلا من القوة والروعة والجمال بحيث أن النفوس التي كانت تصعد الجبل توقفت عن سعيها في الصعود إلى أعلى الجبل. توقفت للاستماع إلى الأغنية، حتى فيرجل ذاته وقف مع الجموع التي تستمع إلى الأغنية، صار جزءا من الجمهور الواقف إعجاباً. في وسط تلك الأغنية، غضب كاتو الوصي على العذاب، تقدم إلى الأمام وسأل الجميع بغضب واضح: «ماذا تظنون أنكم تفعلون؟». ها هم، إنهم جميعاً هنا، يقفون في أهم لحظة في حياتهم، لحظة الخلاص الأبدي، وبدلاً من أن يسرعوا بخطاهم نحو قمة جبل بورتاغوريال، يقفون في وسط طريق الخلاص ويستمعون إلى أغنية من صنع البشر. انتقد كاتو التجمع، وشرع يفرّق الجموع مثل سرب خائف من الطيور، ورأى فيرجيل أن المنظر عار، لربما أنه أهمل واجباته كدليل لهذه النفوس الراغبة في الخلاص الأبدي.



مـا الـذي حـدث آنـذاك؟.. لا شـيء سـوى انقطـاع قصيـر، مثـال علـى الانحرافـات الدنيويـة، إنـه الاعتـداء علـى النفـس حتـى فـي المرحلـة الأخيـرة مـن رحلتهـا الأبديـة، انحرافـات يجـب أن تتوقف، ويجـب الحذر منهـا إذا مـا أرادوا الوصـول للقمـة المرجـوة، بيـد أن هـذه الوصلـة الغنائيـة القصيـرة والتـي لفتـت انتبـاه الجميـع هـي دليـل علـى قـوة الفنـون الإنسـانية، إن المـرء لا يسـتطيع مقاومة الموسـيقى والشـعر. وفقـاً للعقيـدة الكاثوليكيـة الصارمـة والتـي تحـدث عنهـا دانتـي فـي كتابـه الخالـد. العقيدة تقـول يجب علينـا أن نتوقف عن هـذه الإغراءات والمضـي في طريقنا إلـى الخلاص، لكن لدانتي رأي آخر، دانتي الإنسـان، دانتـي الـذي خط أدبـاً عظيماً يقـول إنه حتى فـي أكثر لحظاتنـا الرهيبة مـن الحيـاة، حتى حين نجابـه اللحظة الحاسـمة من حياتنـا، حتى حين ينتظرنـا الخلاص الأبـدي من خطايانـا ونمضي نحو الخلـود، حتى ذلك الحيـن، الفن أهم. ففيه يكمن الشـفاء والفداء والخير الأسـمى والمحبة الأعظـم. إنه النعيم الدائم. الفن والأدب وعد للجميع بمسـتقبل أسـمى وأوقـات أكثر اخضـراراً.

الآن هنـا، وقـرب الشـاطئ الرملـي، ثمـة قصائد تُغنّـى ويجـب أن تُغنّى، قصائـد مثـل القصائد التـي عرفناها و قرأناهـا منذ زمن بعيـد، لربما في طفولتنـا أو فـي مراهقتنـا، أو فيمـا بعـد ذلـك، فـي وقـت لا حـق حيث أضحـت الحيـاة تدريجيـاً أكثر مكـراً، وصـار من الصعـب احتمـال الحزن فيمـا نحن نتذكـر البهجة التي جـاءت بها الكلمـات، والراحة التي غَشَـتنا معهـا، والفهـم والوعي الـذي منحتنـا إياهما.

لنقف وقفة واحدة ونستمع لصوتنا الداخلي،
لأن هذه الأشياء تعني الكثير....



kingabdulazizcenterforworldculture

@iThra_Culture

kingabdulazizcenter

kingabdulazizcenter.com